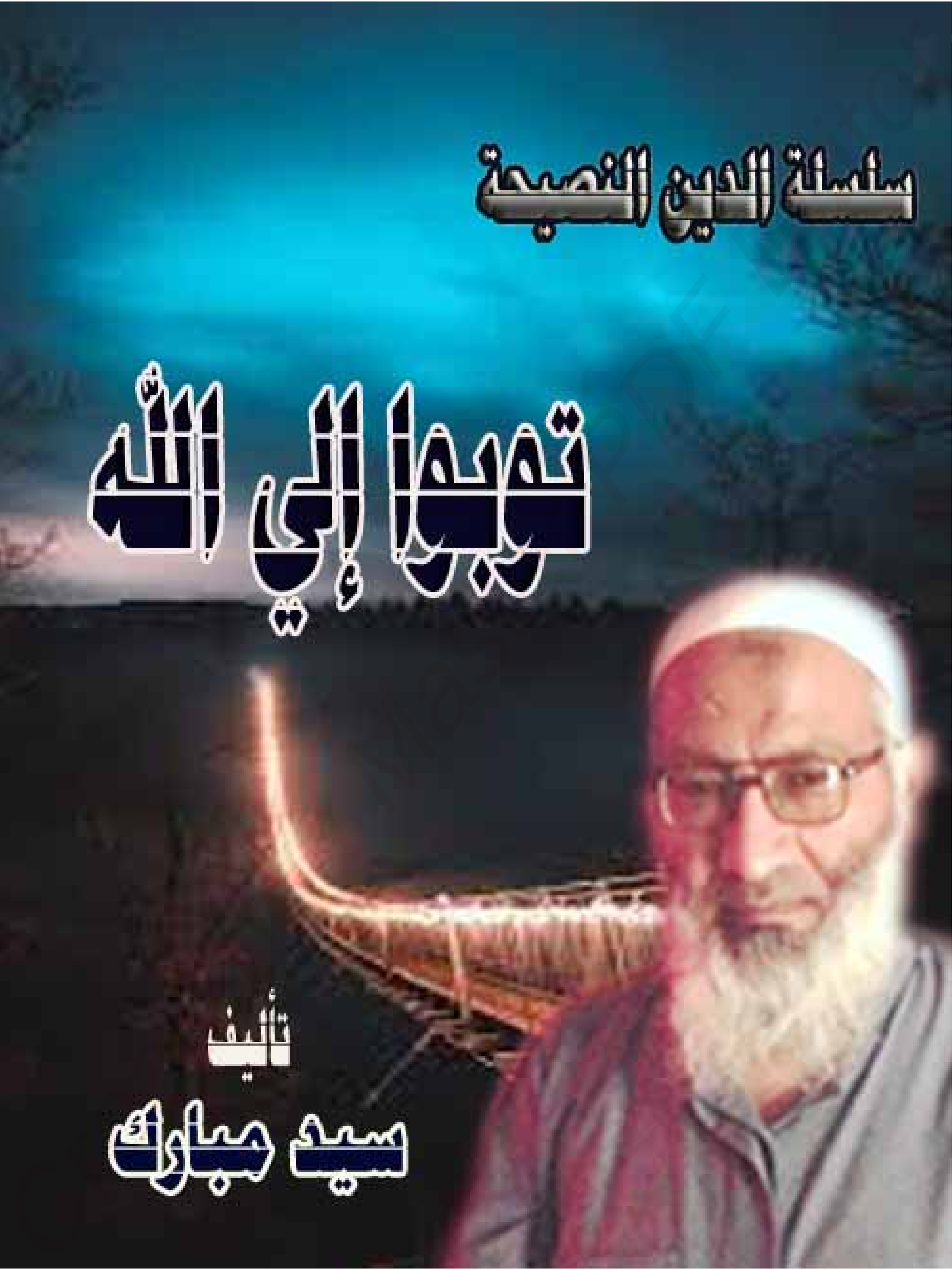


سلسلة الدين النصيحة
توبوا إلى الله
تأليف
سيد مبارك

مقدمة السلسلة

الحمد لله رب العالمين ، حمد عباده الشاكرين الذاكرين ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وحزبه وجنده ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد .. فإني أستعين بالله تعالى وحده وأستهديه وهو القوي العزيز ، الرؤوف الرحيم ، الهادي إلى الصراط المستقيم ، وأقدم بين يدي القارىء المسلم كتابي هذا «**سلسلة الدين النصيحة** » ليكون منهاج عمل في أن نجعل حياتنا تسير على تعاليم الكتاب والسنة ، ونتخلص من كل دخيل وغريب من عادات وتقاليد وبدع طغت وتكاثرت وانتشرت في جسد المجتمع المسلم وحولت حياة المسلمين رويداً رويداً إلى الانحدار والتدني الأخلاقي ، وطغت المادة

والخرافات على تفكير الناس واختلطت الأمور بعضها ببعض ، فصار الباطل حقًا والحق باطلاً ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، وصار الإسلام وتعاليمه غريبًا في ديار الإسلام ، ومن هنا نبدأ البداية الصحيحة في معرفة ديننا الحق ، وعلى صفحات هذا الكتاب مواضيع شتى في جميع مجالات الحياة التي يمر بها المسلم ، قسمناها إلى أجزاء وأعطينا لكل جزء حقه في التوضيح والتبسيط مع الالتزام بتوضيح وبيان الأدلة من الكتاب والسنة والسيرة العطرة للصحابة والتابعين ولم ننس أن نروي بعض القصص والمواعظ واللطائف التي تنشرح لها الصدور وتنير البصائر والعقول معتمدين على بساطة الأسلوب لتدخل النصيحة إلى القلوب ، وأسأل الله سبحانه وتعالى لنا ولكم حسن الخاتمة والتوفيق والفلاح في الدنيا والآخرة ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

المؤلف



بسم الله الرحمن الرحيم
مقدمة الجزء الأول

قد تقول : أنا أريد أن أتوب ، وأريد أن ألقى الله سبحانه وتعالى بقلب سليم ولكننا في زمن غريب ، طغت فيه المصلحة الفردية على المصلحة الجماعية ، وتغيرت الناس وانحرفت عن تعاليم الكتاب والسنة ، وصارت كالسمك الكبير يأكل الصغير والقوي يسيطر على الضعيف، والغني يذل الفقير ، والمتعلم يسخر من الجاهل، وهلم جرا . . .

ولا رحمة ولا تسامح ولا محبة خالصة لوجه الله تعالى ، وإنما مصالح وأطماع شخصية وليس منا من هو كأبي بكر الصديق الذي قال فيه النبي ﷺ : « **لو وضع إيمان أبي بكر في كفة وإيمان الأمة في كفة لرجحت كفة أبي بكر** » .

وليس منا من هو كعمر بن الخطاب الذي قال في حقه النبي ﷺ : « **لو سلك ابن الخطاب فجًا لسلك الشيطان فجًا آخر** » .

وليس منا من هو كعثمان بن عفان رضي الله عنه الذي قال عنه النبي ﷺ : « **ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة** » .

وليس منا رجلاً أمينًا كأبي عبيدة بن الجراح ، ولا شجاعًا كسيف الله خالد بن الوليد . .

ثم إن الرسول لم يعد بيننا كما كان مع الصحابة يرشدهم إلى طريق الله ، والزمان قد اختلف والفتن زادت والبلاء انتشر في كل مكان .

ثم ماذا كان يفعل الصحابة لو كان هناك تليفزيونات وأطباق الدش التي تنقل الإباحية داخل البيوت ومجلات فاضحة وجرائد صفراء وسينما ومسارح ومقاهي ونساء كاسيات عاريات ترتدي الجيب والميني جيب والميكروجيب والاسترتش والتيشيرت واختلاط فاحش بين النساء والرجال

في المصالح والمواصلات وفي كل مجالات الحياة .

أنا أريد أن أتوب ولكننا في عصر العلم .. عصر المعلومات .. عصر الهندسة الوراثية والاستنساخ .. عصر حبوب الفياجرا والكمبيوتر .. عصر صارت المرأة تلعب فيه المصارعة الحرة وكرة القدم والملاكمة .. عصر المساواة فيما يحل وما لا يحل .. عصر لا مكان فيه للتواضع والإيثار والمحبة ، إنها أصبحت صفات ضعف في الشخصية ..

كيف أتوب بعد كل ذلك ؟!

*** الجواب :**

الرد سهل ويسير إن شاء الله ، وليكن معلومًا أنه ما صارت الفتن تتساقط على رؤوسنا والبركة تضيع من أيدينا والمعاصي تزداد في أعمالنا إلا بالبعد عن الله تعالى وعن الكتاب والسنة ، وينبغي على الإنسان أن يكون صريحًا مع نفسه إن أراد التوبة والاستقامة ، وكل الحجج الواهية التي يحتج بها الإنسان لتسويف التوبة وتبرير طاعته للشيطان

ومعصيته للرحمن إنما هي من تلبيس إبليس. فما الذي تغير وما الذي تبدل ؟

السنة أيام الحبيب المصطفى كما هي الآن اثني عشر شهرًا ، والأسبوع سبعة أيام والفصول أربعة الصيف والشتاء والخريف والربيع ، فما الذي تغير مع الزمان ؟!!

أليس الحلال أيام النبي وزمنه هو نفسه الحلال في أيامنا هذه والحرام كذلك وإلى يوم القيامة وكتاب الله محفوظ لم يتغير فيه حرف واحد والسنة محفوظة وصنفت لمعرفة الصحيح من الحسن والضعيف من الموضوع .. فما الذي تغير وما الذي تبدل ؟!

العصر ووسائل الحياة !!

وهل التقدم العلمي يساعد على سهولة ويسر الطاعة أم يزيدها صعوبة ومشقة ؟!

لقد كان الصحابي إن أراد أن يتعلم حديثًا يسافر من مكان كذا إلى مكان كذا في ثلاثة أيام مثلاً على الراحلة ومعه زاده ويقاوم أحوال الطبيعة من أجل أن يتعلم ، والآن

حدث ولا حرج يستطيع الإنسان أن يذهب إلى أوربا أو أمريكا في ساعات قليلة بلا مشقة وإنما جالس في الطائرة في مكان مكيف وهناك من يتولى رعايته حتى انتهاء الرحلة، وهناك القطار والمترو والشبح والوسائل المختلفة وهناك الكمبيوتر والأجهزة الحديثة في كل المجالات من طب وهندسة وزراعة ... إلخ .

فهل تلك الوسائل تساعد على الطاعة ويسرها أم أننا لم نجد سببًا لغفلتنا وبعدنا عن منهج الله إلا شماعة العصر.

نقولها واضحة إن أردنا أن نتوب فلنعلم أن العيب فينا نحن وليس في الزمان أو المكان ..

وما أصدق وأروع ما قاله الشافعي رحمه الله تعالى :

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا
ونهجو ذا الزمان بغير ذنب ولو نطق الزمان لنا هجانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئب ويأكل بعضنا بعضًا عيانا

أخي القارىء ..

على الصفحات التالية إن أردت حقًا أن تتوب كل ما يتعلق بالتوبة وتعريفها وحقيقتها وشروطها ، وأسأل الله أن يتقبلنا برحمته ويتوب علينا توبة نصوحًا إنه نعم المولى ونعم النصير .

وكتبه الفقير إلى عفو ربه

سيد مبارك (أبو بلال)

❋ ❋ ❋

الأمانة والإنسان ورحمة الله تعالى

من رحمة الله تعالى عندما خلق الإنسان وجعله خليفته في الأرض وحمله الأمانة التي أبت السموات والأرض أن يحملنها فحملها الإنسان وهو عاجز عن أداء حقها وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

أقول على الرغم من ثقل الأمانة بما فيها من مسئوليات وتبعات جسام فإن الله تعالى برحمته كلما ضعف الإنسان وانحرف عن الطريق القويم والصراط المستقيم وقصر وأساء فيما ائتمنه الله تعالى عليه فإنه سبحانه وتعالى يفتح له باب التوبة ليعود إلى المنهج القويم مستغفراً وتائباً راجياً رحمة الله وعفوه ومغفرته .

يقول « سيد قطب » في تفسيره لقوله تعالى :
﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ .

قال : (فاختصاص الإنسان بحمل الأمانة وأخذه على عاتقه أن يعرف بنفسه ويهتدي بنفسه ، ويعمل بنفسه، ويصل بنفسه هذا كان ليتحمل عاقبة اختياره وليكون جزاؤه من جنس عمله وليحق العذاب على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات وليمد الله يد العون للمؤمنين والمؤمنات فيتوب عليهم مما يقعون فيه تحت ضغط ما ركب فيهم من نقص وضعف وما يقف في طريقهم من حواجز وموانع وما يشدهم من جواذب وأثقال فذلك فضل الله وعونه وهو أقرب إلى المغفرة والرحمة بعباده ﴿ وكان الله غفوراً رحيمًا ﴾)[1] .. اهـ .

ومن ثم كان على الإنسان كلما أخطأ ألا يترك الشيطان يزين له المعصية ويلبس عليه اليأس من رحمة الله

(١) تفسير : في ظلال القرآن لسيد قطب / ٥ .

وأن مصيره جهنم وبئس المهاد ، ويجب أن يعلم الإنسان أنه لا يغفر الذنب العظيم إلا الرب العظيم ، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر : ٥٣] .

ويقول الحبيب المصطفى ﷺ فيما رواه البخاري عن أبي هريرة قال : قال ﷺ :

« **يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي وأنا معه حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خيراً منهم ، وإن تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعًا ، وإن تقرب إليّ ذراعًا تقربت إليه باعًا ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة** »[1] .

لا يأس من رحمة الله أبدًا فهذا من كيد الشيطان ،

---

(١) أخرجه البخارى (١٣ / جـ٧٤٠٥/ فتح) ، ومسلم (٤ / ذكر / ٢٠٦١/ جـ ٢) والترمذى (٥ / جـ ٣٦٠٣) .

وقد جاء رجل إلى ابن مسعود رضي الله عنه يشكو من ذنب ألم به قال له : هل لي من توبة ؟ فأعرض عنه ابن مسعود ، ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان فقال له : « إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة ؛ فإن عليه ملكًا موكلاً به لا يغلق فاعمل ولا تيأس » .

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رجلاً سأله فقال : إني أصبت ذنبًا . فقال له علي : تب إلى الله تعالى ثم لا تعد . قال : فإني قد فعلت ثم عدت . قال علي : تب إلى الله ثم لا تعد .

قال الرجل : إلى متى ؟ قال علي : حتى يكون الشيطان هو المحسور .

وإليك أخي القارىء قصة حقيقية تبين رحمة الله عز وجل وتوبته على عباده وقد جاءت في كتاب « العائدون إلى الله » تحت عنوان توبة امرأة مغربية بعد إصابتها بالسرطان وشفائها منه في بيت الله .

(ليلى الحلو) امرأة مغربية أصيبت بالمرض الخبيث (السرطان) فعجز الأطباء عن علاجها ، ففقدت الأمل بالله الذي لم تكن تعرفه من قبل ، فتوجهت إليه في بيته الحرام ، وهناك كان الشفاء ، والآن - عزيزي القارىء - أتركك مع الأخت ليلى لتروي تفاصيل قصتها بنفسها ، فتقول :

منذ تسع سنوات أصبت بمرض خطير جدًا ، وهو مرض السرطان ، والجميع يعرف أن هذا الاسم مخيف جدًا، وهناك في المغرب لا نسميه السرطان ، وإنما نسميه (الغول) أو (المرض الخبيث) .

أصبت بالتاج الأيسر ، وكان إيماني بالله ضعيفًا جدًا، كنت غافلة عن الله تعالى ، وكنت أظن أن جمال الإنسان يدوم طوال حياته ، وأن شبابه وصحته كذلك ، وما كنت أظن أبدًا أني سأصاب بمرض خطير كالسرطان ، فلما أصبت بهذا المرض وزلزلني زلزالاً شديدًا ، وفكرت

في الهروب ، ولكن إلى أين ومرضي معي أينما كنت ؟!
فكرت في الانتحار ، ولكني كنت أحب زوجي وأولادي ،
وما فكرت أن الله سيعاقبني إذا انتحرت ؛ لأنني كنت
غافلة عن الله كما أسلفت .

وأراد الله سبحانه أن يهديني بهذا المرض ، وأن
يهدي بي كثيراً من الناس ، فبدأت الأمور تتطور ، لما
أصبت بهذا المرض رحلت إلى بلجيكا ، وزرت عدداً من
الأطباء هناك ، فقالوا لزوجي : لابد من إزالة الثدي ،
وبعد ذلك استعمال أدوية حادة تسقط الشعر وتزيل الرموش
والحاجبين ، وتعطي لحية على الوجه ، كما تسقط الأظافر
والأسنان ، فرفضت رفضًا كليًا وقلت : إنني أفضل أن
أموت بثديي وشعري وكل ما خلق الله بي ولا أشوه ،
وطلبت من الأطباء أن يكتبوا لي علاجًا خفيفًا ففعلوا .
فرجعت إلى المغرب ، واستعملت الدواء فلم يؤثر علي ،
ففرحت بذلك، وقلت في نفسي: لعل الأطباء قد أخطأوا،

وأني لم أصب بمرض السرطان ، ولكن بعد ستة أشهر تقريبًا بدأت أشعر بنقص في الوزن ، ولوني تغير كثيرًا ، وكنت أحس بالآلام ، كانت معي دائمًا ، فنصحني طبيب في المغرب أن أتوجه إلى بلجيكا ، فتوجهت إلى هناك ، وهناك كانت المصيبة ، فقد قال الأطباء لزوجي : إن المرض قد عم ، وأصيبت الرئتان ، وإنهم الآن ليس لديهم دواء لهذه الحالة . . ثم قالوا لزوجي : من الأحسن أن تأخذ زوجتك إلى بلدها حتى تموت هناك . فُجع زوجي بما سمع، وبدلاً من الذهاب إلى المغرب ذهبنا إلى فرنسا حيث ظننا أننا سنجد العلاج هناك ، ولكنا لم نجد شيئًا ، وأخيرًا حرصنا على أن نستعين بأحد هناك لأدخل المستشفى وأقطع ثديي وأستعمل العلاج الحاد .

لكن زوجي تذكر شيئًا كنا قد نسيناه ، وغفلنا عنه طوال حياتنا ، لقد ألهم الله زوجي أن نقوم بزيارة إلى بيت الله الحرام ؛ لنقف بين يديه سبحانه ونسأله أن يكشف ما

بنا من ضر ، وذلك ما فعلنا .

خرجنا من باريس ونحن نهلل ونكبر ، وفرحت كثيرًا لأنني لأول مرة سأدخل بيت الله الحرام ، وأرى الكعبة المشرفة ، واشتريت مصحفًا من مدينة باريس ، وتوجهنا إلى مكة المكرمة ، وصلنا إلى بيت الله الحرام ، فلما دخلنا ورأيت الكعبة بكيت كثيرًا لأنني ندمت على ما فاتني من فرائض وصلاة وخشوع وتضرع إلى الله ، وقلت: يا رب ، لقد استعصى علاجي على الأطباء ، وأنت منك الداء ومنك الدواء ، وقد أغلقت في وجهي جميع الأبواب ، وليس لي إلا بابك فلا تغلقه في وجهي، وطفت حول بيت الله ، وكنت أسأل الله كثيرًا بأن لا يخيبني ، وأن لا يخذلني .

وكما ذكرت آنفًا ، فقد كنت غافلة عن الله ، جاهلة بدين الله ، فكنت أطوف على العلماء والمشايخ الذين كانوا هناك ، وأسألهم أن يدلوني على كتب وأدعية سهلة وبسيطة

حتى أستفيد منها ، فنصحوني كثيرًا بتلاوة كتاب الله والتضلع من ماء زمزم - والتضلع هو أن يشرب الإنسان حتى يشعر أن الماء قد وصل إلى أضلاعه - كما نصحوني بالإكثار من ذكر الله ، والصلاة على رسول الله ﷺ ، شعرت براحة نفسية واطمئنان في حرم الله ، فطلبت من زوجي أن يسمح لي بالبقاء في الحرم ، وعدم الرجوع إلى الفندق ، فأذن لي .

وفي الحرم كان بجواري بعض الأخوات المصريات والتركيات ، كن يرينني أبكي كثيرًا ، فسألنني عن سبب بكائي .

فقلت : لأنني وصلت إلى بيت الله ، وما كنت أظن أني سأحبه هذا الحب ، وثانيًا : لأنني مصابة بالسرطان .

فلازمنني ولم يكن يفارقنني ، فأخبرتهن أنني معتكفة في بيت الله ، فأخبرن أزواجهن ومكثن معي ، فكنا لا

نام أبدًا ، ولا نأكل من الطعام إلا القليل ، لكنا كنا نشرب من ماء زمزم .

والنبي ﷺ يقول : « **ماء زمزم لما شرب له ، وإن شربته لتشفى شفاك الله ، وإن شربته لظمأك قطعه الله ، وإن شربته مستعيذًا أعاذك الله** » .

فقطع الله جوعنا ، وكنا نطوف دون انقطاع ، حيث نصلي ركعتين ثم نعاود الطواف ، ونشرب من ماء زمزم ونكثر من تلاوة القرآن ، وهكذا كنا في الليل والنهار لا نام إلا قليلاً ، عندما وصلت إلى بيت الله كنت هزيلة جدًا ، وكان في نصفي الأعلى كثير من الكويرات والأورام التي تؤكد أن السرطان قد عم جسمي الأعلى ، فكن ينصحنني أن أغسل نصفي الأعلى بماء زمزم ، ولكني كنت أخاف أن ألمس تلك الأورام والكويرات ، فأتذكر ذلك المرض فيشغلني ذلك عن ذكر الله وعبادته ، فغسلته دون أن ألمس جسدي .

وفي اليوم الخامس ألح علي رفيقاتي أن أمسح جسدي بشيء من ماء زمزم ، فرفضت في بداية الأمر ، لكني أحسست بقوة تدفعني إلى أن آخذ شيئًا من ماء زمزم، وأمسح بيدي على جسدي ، فخفت في المرة الأولى، ثم أحسست بهذه القوة مرة ثانية ، فترددت ، ولكن في المرة الثالثة ودون أن أشعر أخذت يدي ومسحت بها على جسدي وثدي الذي كان مملوءًا كله دمًا وصديدًا وكويرات وحدث ما لم يكن في الحسبان . . كل الكويرات ذهبت ولم أجد شيئًا في جسدي ، لا ألمًا ولا دمًا ولا صديدًا ، فاندهشت في أول الأمر ، فأدخلت يدي في قميصي لأبحث عما في جسدي فلم أجد شيئًا من تلك الأورام ، فارتعشت ، ولكني تذكرت أن الله على كل شيء قدير ، فطلبت من إحدى رفيقاتي أن تلمس جسدي، وأن تبحث عن هذه الكويرات ، فصحن كلهن دون شعور : الله أكبر ، الله أكبر . .

فانطلقت لأخبر زوجي ، ودخلت الفندق ، فلما وقفت أمامه مزقت قميصي وأنا أقول : انظر رحمة الله ، وأخبرته بما حدث فلم يصدق ذلك ، وأخذ يبكي ويصيح بصوت عال ويقول :

هل علمت أن الأطباء أقسموا على موتك بعد ثلاثة أسابيع فقط ؟! .

فقلت له : إن الآجال بيد الله سبحانه وتعالى ولا يعلم الغيب إلا الله .

مكثنا في بيت الله أسبوعًا كاملاً ، فكنت أحمد الله وأشكره على نعمه التي لا تحصى ، ثم زرنا المسجد النبوي بالمدينة المنورة ورجعنا إلى فرنسا ، وهناك حار الأطباء في أمري واندهشوا وكادوا يجنون .

وصاروا يسألونني : هل أنت فلانة ؟! .

فأقول لهم : نعم – بافتخار – وزوجي فلان، وقد رجعت إلى ربي ، وما عدت أخاف من شيء إلا من الله

سبحانه ، فالقضاء قضاء الله ، والأمر أمره .

فقالوا لي : إن حالتك غريبة جدًا وإن الأورام قد زالت ، فلابد من إعادة الفحص . أعادوا فحصي مرة ثانية فلم يجدوا شيئًا ، وكنت من قبل لا أستطيع التنفس من تلك الأورام ، ولكن عندما وصلت إلى بيت الله الحرام وطلبت الشفاء من الله ذهب ذلك عني .

بعد ذلك كنت أبحث في سيرة النبي ﷺ ، وفي سيرة أصحابه رضي الله عنهم ، وأبكي كثيرًا ، كنت أبكي ندمًا على ما فاتني من حب الله ورسوله ، وعلى تلك الأيام التي قضيتها بعيدة عن الله عز وجل ، وأسأل الله أن يقبلني وأن يتوب علي وعلى زوجي وعلى جميع المسلمين[1] . اهـ .

* * *

(١) العائدون إلى الله لمحمد عبد العزيز المسند .

تسويف التوبة

إن كان باب التوبة مفتوح وباب القبول مفتوح فلا مندوحة من العودة إلى الصراط المستقيم والطريق القويم وإصلاح السرائر والنفوس من شوائب المعاصي والآفات حتى تستقيم الأحوال على منهج الله وسنة رسول الله ﷺ، ولا عذر لمن يسوف التوبة ويغره بالله الغرور ، فتسمع من في قلوبهم مرض وضعف أعذارًا أقبح من الذنوب نفسها . .

من يقول أنا قلبي أبيض وبيني وبين الله عمار ، أو ما زال في العمر بقية والرسول سوف يشفع لنا ، ومن قال لا إله إلا الله دخل الجنة إلى غير ذلك من التمني على الله بلا عمل أو توبة .

ومن الناس من هو طويل الأمل فهناك من يقول أنا

سوف أتوب وأصلي من رمضان القادم ، وذلك عندما أحج إلى بيت الله وأعود كما ولدتني أمي سوف أبتعد عن المعاصي ، وهذه تقول عندما أتزوج سوف أرتدي الحجاب وأطيع الله وهكذا ..

فهل يعلم هؤلاء قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴾ [القيامة : ١٤ ، ١٥] . لا عذر ولا حجة للإنسان في طاعة الشيطان ومعصية الواحد الديان ، فالحلال بين والحرام بين ، وكتاب الله في أيدينا والسنة المطهرة موجودة لا تخلو من الترغيب والترهيب في كل شئون الحياة دين ودنيا ، فلا مندوحة من العودة إلى الله ، والندم على ما فرطنا في حقه سبحانه وتعالى ، وليعلم كل من يسوف التوبة أن باب التوبة سوف يغلق في حالتين لا ينفع فيهما عمل ولا تقبل توبة التائب إذا تاب .

الحالة الأولى : لا يقبل الله توبة العبد عند الغرغرة ؛

لقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٨] . ولقول الرسول ﷺ : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »[1] رواه الترمذي وقال حسن صحيح .

الحالة الثانية : لا يقبل الله توبة العبد عند طلوع الشمس من مغربها لقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] . وقول الرسول ﷺ : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه »[2] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٥ / حـ ٣٥٣٧) ، وأحمد في مسنده (٣ / ٤٢٥) ، والحاكم في المستدرك (٤ / ٢٥٧) .

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة (٤/ ذكر/ ٢٠٧٦/ ح٤٣) وأحمد في مسنده (٢/ ٢٧٥).

فحذار من التسويف وليصلح كل إنسان ما بينه وبين الله قبل أن تعاجله المنية وتقوم قيامته الصغرى يومئذ لا ينفع الندم بعد العدم .

وما أجمل ما قاله الشاعر :

إلهي عبدك العاصي أتاك مقراً بالذنوب وقد دعاك

وإن يك يا مهيمن قد عصاك فلم يسجد لمعبود سواك

تجاوز عن ضعيف قد أتاك وجاءك راجيًا يرجو هداك

فإن تغفر فأنت لذاك أهل وإن تطرد فمن يرحم سواك

* حقيقة التوبة ومعناها

اعلم أن أصل التوبة الرجوع ، يقال : تاب وأناب بمعنى رجع ، والتوبة ليست كلمة تقال على اللسان كأن يقول الإنسان أستغفر الله وأتوب إليه ثم ينتهي الأمر عند هذا الحد ، كلا إنما التوبة النصوح تعريفها أكثر من هذا وإليك ما قيل فيها :

قال الحسن البصري : التوبة النصوح الندم بالقلب واستغفار الله والترك بالجوارح والعزم على عدم العود .

ويقول ذو النون المصري : حقيقة التوبة أن تضيق عليك الأرض بما رحبت حتى لا يكون لك قرار ، وأن تضيق عليك نفسك ، قال تعالى في الثلاثة الذين خلفوا كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية حين تخلفوا عن غزوة تبوك فهجرهم النبي والمسلمون خمسين يومًا ثم جاءت توبتهم في قوله تعالى : ﴿ **وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ** ﴾ [التوبة : ١١٨] .

فالتائب دائم التأسف ، كثير التلهف يعرف من بين أمثاله بذنوبه ، ويستدل على حاله بنحوله .

ويقال : التوبة : هي الحياء العاصم والبكاء الدائم .

ويقال : التوبة : الندم على ما فات ، وإصلاح ما هو آت .

ولقد سمع الإمام علي رضي الله عنه رجلاً يقول : أستغفر الله . فقال له : ثكلتك أمك ، أتدري ما الاستغفار ؟ الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان :

أولها : الندم على ما مضى .

والثاني : أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله .

والثالث : العزم على ترك العودة إليه أبدًا .

والرابع : أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها .

والخامس : أن تعمد إلى اللحم الذي نبت من السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ لحم جديد .

والسادس : أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية .

فعند ذلك تقول : أستغفر الله[١] . اهـ .

وهناك تعاريف أخرى ، فالتوبة هي الرحمة الإلهية التي يلوذ بها كل ظالم لنفسه وعاصي لربه ، والله تبارك وتعالى توعد الظالمين والمنافقين بالعذاب الأليم في الآخرة ، إلا إذا تابوا وأصلحوا فأولئك يتوب الله عليهم وهو التواب الرحيم .

وليتذكر العبد قول الحق سبحانه : ﴿ **وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الأعراف : ١٥٣] .

* الترغيب في التوبة

اعلم أن كتاب الله عز وجل وسنة الصادق المعصوم ﷺ لا تخلو من الآيات والأحاديث الصحيحة في الحض والترغيب على التوبة لأن كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين

(١) وصايا الرسول لطه عفيفى .

التوابون كما قال النبي ﷺ .

وآيات الترغيب في التوبة في القرآن الكريم منها :

قوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم : ٨] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

ومن الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ :

١ - عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : **« لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة »**[١] متفق عليه .

٢ - ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال : سمعت

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (١١ / ٦٣٠٩ / فتح) .

النبي ﷺ يقول : « إن عبدًا أصاب ذنبًا - وربما قال : أذنب - فقال : رب أذنبت - وربما قال : أصبت - فاغفر لي . فقال ربه : أعلم عبدي أن له ربًا يَغفِرُ الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنبًا - وربما قال : أصاب ذنبًا - فقال : رب أذنبت أو أصبت آخر فاغفره لي . فقال : أعلم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غُفَرتُ لعبدي . ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنبًا - وربما قال : أصاب ذنبًا - قال : رب أصبت أو أذنبت آخر فاغفرهِ لي . فقال : أعلم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدي ثلاثًا فليعمل ما شاء »[1] . اهـ .

٣ - ما رواه مسلم عن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه قال : قال ﷺ : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم

---

(١) رواه البخاري في ٩٧ كتاب التوحيد ٣٥ / باب قوله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ .

واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة »[1] .

والأحاديث في الترغيب في التوبة كثيرة ، والإجماع منعقد على وجوب التوبة ؛ لأن الذنوب مهلكات مبعدات عن الله تعالى ، فيجب الهرب منها لمن بيده الأمر كله غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب سبحانه وتعالى .

فإن كنت أيها العبد تصر على استمرارك في المعصية والبعد عن طريق الله وتسويف التوبة فاعتبر نفسك هذا الرجل الذي جاء إلى سيدنا إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى ليكون لك عبرة وعظة لتنتبه وتستيقظ من غفلتك وإليك الحوار بينهما :

جاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم فقال له : يا أبا إسحاق ، إني مسرف على نفسي فاعرض علي ما يكون لها زاجرًا ومستنقذًا . فقال له : إن قبلت خمس خصال وقدرت عليها لم تضرك المعصية .

---

(١) أخرجه مسلم (٤ / ذكر / ٢٠٧٥ / ج٤٢) .

قال الرجل : هات يا أبا إسحاق .

فقال : أما الأولى : فإذا أردت أن تعصى الله تعالى فلا تأكل من رزقه .

قال الرجل : فمن أين آكل وما في الأرض رزقه ؟!

قال له : يا هذا أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتعصيه ؟

قال الرجل : لا . . هات الثانية .

قال له : وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئًا من بلاده .

قال الرجل : هذا أعظم فأين أسكن ؟!

قال له : يا هذا ، أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه ؟

قال الرجل : لا . . هات الثالثة .

قال له : وإذا أردت أن تعصيه وأنت تحت رزقه وفي بلاده فانظر موضعًا لا يراك منه فاعصه فيه .

قال الرجل : يا إبراهيم ما هذا ؟! الله يطلع على ما

في السرائر .

قال له : أفيحسن بك أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه وهو يراك ويعلم ما تجاهر به ؟

قال الرجل : لا .. هات الرابعة .

قال له : فإذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فقل له : أخرني حتى أتوب توبة نصوحًا وأعمل لله صالحًا .

قال الرجل : لا يقبل مني .

قال له : يا هذا ، إن لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب وتعلم أنه إذا جاءك لم يكن له تأخير فكيف ترجو به الخلاص .

قال الرجل : هات الخامسة .

قال له : إذا جاءك الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى النار فلا تذهب معهم .

قال الرجل وهو يبكي : يا إبراهيم حسبي ، حسبي، إني أستغفر الله وأتوب إليه .

فكان لتوبته وفيًا فلزم العبادة واجتنب المعاصي حتى فارق الحياة[1] . اهـ .

ومن ثم على العبد أن يعلم أن التوبة إلى الله هي السبيل الوحيد للنجاة وليس هناك حلول وسط فمن أراد النجاة فليتب ويجتنب المعاصي والذنوب ومن أطال الأمل وغره بالله الغرور فلا يلومن إلا نفسه ، وإليك هذا الحوار لتعتبر وتتقي الله تعالى ..

روي أن أبا الدرداء رضي الله عنه مر بجماعة قد تجمهروا على رجل وجعلوا يضربونه ويشتمونه ، فأقبل عليهم وقال : ما الخبر ؟!

قالوا : رجل وقع في ذنب كبير .

قال : أرأيتم لو وقع في بئر أفلم تكونوا تستخرجونه منه ؟

قالوا : بلى .

(١) الأنابيش عبد الرحمن الضبع / ١ .

قال : لا تسبوه ولا تضربوه وإنما عظوه وبصروه واحمدوا الله الذي عافاكم من الوقوع في ذنبه .

قالوا : أفلا تبغضه ؟!

قال : إنما أبغض فعله ، فإذا تركه فهو أخي .

فأخذ الرجل ينتحب ويعلن توبته[1] . اهـ .

وهكذا أخي القارىء يجب أن نكون نحن ، فكل ابن آدم خطاء ، والتائب حبيب الرحمن ، فتوبوا إلى الله وفروا إلى الله فهو نعم المولى ونعم النصير .

★ شروط التوبة

إذا نوى الإنسان التوبة وأدرك أنه لا يغفر الذنب إلا غافر الذنب سبحانه ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى الله جل وعلا ، يجب أن يعلم أن التوبة لا تتم ولا تكون نصوحًا إلا بأربعة شروط ذكرها العلماء ، وإليك الشروط الأربعة

(١) صور من حياة الصحابة لعبد الرحمن رأفت الباشا .

بشيء من التفصيل لتكون على بينة من الأمر ولله تعالى الأمر من قبل ومن بعد .

الشرط الأول :

الإقلاع عن الذنب

ما معنى الإقلاع عن الذنب ؟

معناه لا تصح توبة العبد ما لم يقلع عن المعصية وليس هناك كبيرة وأخرى صغيرة ، لا أترك هذه وأعصي الله في تلك ، فالمعصية كبيرة أو صغيرة يجب الإقلاع عنها فورًا .

يقول ابن مسعود رضي الله عنه : لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى عظمة من عصيت .

وقال أيضًا : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل يخاف أن يقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه .

وأعطيك مثالاً على ذلك التدخين . . فشرب الدخان أو السجائر معصية لله تعالى وأجمع أهل العلم بتحريم شرب الدخان أضف إلى ذلك إجماع أهل الطب على خطورة التدخين على صحة الإنسان ، وأن الدخان سبب لكثير من الأمراض كالسرطان وتصلب الشرايين . . إلخ .

واشترطت الهيئات المسئولة عن صحة الإنسان كتابة تحذير واضح على كل علبة سجائر (التدخين ضار جداً بالصحة) وهي لا تسمن ولا تغني من جوع ؛ لأنه مع ذلك لا يتورع الكثير من المدخنين والمدخنات عن التدخين في الشوارع ووسائل المواصلات والأماكن العامة وأماكن العمل . . إلخ ، بلا حياء ضارين أنفسهم وغيرهم بهذا الدخان الذي يؤدي إلى الانتحار البطيء .

ولقد كان لي صديق في العمل يدخن فدار بيننا حوار أريد للقارىء أن يقرأه فربما كان سببًا لهدايته وإقلاعه عن التدخين .

قلت لهذا الصديق : هذه السيجارة وما فيها من سموم حرام .

قال لي : لا ، التدخين مكروه .

أصابني العجب لأن في حدود علمي الأئمة أربعة ، فإذا هم قد صاروا خمسة ! وهذا حال كثير من العباد يفتون في دين الله بغير علم أو كتاب منير .

قلت له : حسنًا فلنقل إنه مكروه ولنبدأ من البداية ونقول بحمد الله وتوفيقه : إن الله تعالى أحل لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث ، فهل هناك إنسان عاقل يقول إن السجائر من الطيبات ؟! أو هل يستوي هذا وذاك ؟! كيف ذلك والله تعالى يقول : ﴿ **قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [المائدة : ١٠٠] . ويقول الحبيب ﷺ : « **لا ضرر ولا ضرار** »[1] .

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه .

هل سمعت يا صديقي أو رأيت إنسانًا يتصدق بسيجارة ابتغاء مرضاة الله ؟

قال : لا ، السجائر من الخبائث ولا شك في هذا .

قلت : إذًا ما معنى السجائر مكروهة ؟ هل الله تعالى يكرهها ، فالمصيبة أعظم ؟ كيف يا صديقي يحب المخلوق شيئًا يكرهه الخالق سبحانه ؟!

❁ ❁ التدخين حرام .. حرام ❁ ❁

تعال أخي القارىء أبين لك ما في التدخين وشرب الدخان من خطيئة متعددة النواحي والمصائب .

أولا : من الناحية الصحية

تجد أن المدخن المعتدل في التدخين يدخن في اليوم مثلا علبة واحدة كاملة ، والعلبة كما هو معلوم تحتوي على عشرين سيجارة ، بمعنى أن المدخن الذي يدخن علبة واحدة في اليوم يدخن عشرين مكروهًا .. ألا يساوي العشرين مكروهًا واحد حرام ؟!!

طولها؟ إنها كارثة وانتحار بطيء .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٩] .

ومن الناحية المالية

ثمن علبة السجائر الواحدة جنيهًا ونصف أو أكثر حسب نوع السجائر ولو ضربنا ثمن العلبة أو العلب يوميًا في شهر أو سنة أو ثلاثة أو أكثر لأدركت أن المدخن كان من إخوان الشياطين ؛ لأن ذلك تبذير وإسراف وإضاعة للمال ، وكان أهله أولى به من جهة فيما أحله الله ، ومن جهة أخرى سوف يسأله الله تعالى عن هذا المال يوم القيامة .

وتذكر الحديث الشريف عن نضلة بن عبيد الأسلمي رضي الله تعالى عنه قال : قال ﷺ :

« **لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره**

فيما أفناه وعن علمه فيما فعل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن جسمه فيما أبلاه »[1] رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

ومن ناحية السيئات

وهي الأخطر لأن يوم القيامة لا ينفع مال ولا بنون ولا مركز اجتماعي ولا واسطة ولا شيء من هذا إلا العمل الصالح الذي يتبلور يوم القيامة إلى حسنات أو العمل السيء إلى سيئات ، فلو قلنا إن عدد العشرين سيجارة في اليوم الواحد للمعتدل في التدخين يجازي الله تعالى وهو أعلم العبد السيئة بالسيئة لأدركت أن الذين يفرطون في التدخين إنما يفرطون في حسناتهم من صلاة وصيام وحج .. إلخ وهي أغلى ما يملكون من هذه الدنيا الفانية

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ح ٢٤١٧) وذكره المنذرى في الترغيب (٤ / ٣٩٦) وإسناده حسن .

وصدق الله القائل : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾

[آل عمران : ١٨٥] .

ولك أن تتصور السيئات التي يأخذها المدخن مع سنوات عمره التي أضاعها بالتدخين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الشرط الثاني :

العزم على عدم العودة

إذا أقلع العبد عن المعصية عليه أن يعزم على عدم العودة إليها بعدما هداه الله رب العالمين بلطفه وكرمه ، ومن نوى وعزم عدم العودة ستره الله في الدنيا والآخرة .

(حكي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر يومًا في بعض سكك المدينة فاستقبله شاب وهو حامل قارورة تحت ثيابه .

أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال له : إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة ؟ قال : لا . فقتله وكمل به المائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فأتاه وقال له : إنه قد قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال : نعم ومن يحول بينه وبين التوبة ، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله تعالى معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى كان نصف الطريق أدركه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبًا مقبلاً إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرًا قط فأتاهم ملك في صورة آدمي فحكموه بينهم فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيها كان أدنى فهو أقرب إليها فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة »[1] . اهـ .

(١) أخرجه البخاري (٦/ح٣٤٧٠/ فتح) ومسلم (٤/ توبة / ٢١١٨/ ح٤٦) وأحمد في مسنده (٧٢٣) .

فقال عمر : أيها الشاب ما الذي تحمل تحت ثيابك ؟ وكان فيها خمر فخجل الشاب أن يقول خمرًا وقال في سره: إلهي لا تخجلني عند عمر ، ولا تفضحني واسترني عنده فلا أشرب الخمر أبدًا . ثم قال : يا أمير المؤمنين الذي أحمله هو خل . فقال عمر : أرني حتى أراها فأخذها فإذا بها قد صارت خلاً)[1] . اهـ .

مخلوق لجأ إلى الله تعالى بإخلاص ونوى العزم على عدم العودة إلى المعصية فستره الله تعالى .

وإن كانت نية العبد وعزمه على عدم العودة بإخلاص سببًا لأن يكرمه الله بالستر ولا يفضحه أمام الناس ، فهي أيضًا سببًا لنزول رحمة الله تعالى عليه .

وثبت في الحديث المتفق عليه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن نبي الله ﷺ قال : « **كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا ، فسأل عن أعلم**

(١) من كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي .

فإذا عزم الإنسان على التوبة والإقلاع عن الذنب ، فالله تعالى يغفر الذنب ويمحو السيئات ويتوب على من تاب .

وإليك أخي القارىء هذه القصة الحقيقية من واقع الحياة لرجل تاب وندم على المعصية على يد ابنته الصغيرة من كتاب « العائدون إلى الله » للأستاذ / محمد بن عبد العزيز المسند :

كان يقطن مدينة الرياض .. يعيش في ضياع ولا يعرف الله إلا قليلاً .

منذ سنوات لم يدخل المسجد ، ولم يسجد لله سجدة واحدة ، ويشاء الله عز وجل أن تكون توبته على يد ابنته الصغيرة .

يروي القصة فيقول :

كنت أسهر حتى الفجر مع رفقاء السوء في لهو ولعب وضياع تاركًا زوجتي المسكينة وهي تعاني من الوحدة

والضيق والألم وما الله به عليم ، لقد عجزت عني تلك الزوجة الصالحة الوفية ، فهي لم تدخر وسعًا في نصحي وإرشادي ولكن دون جدوى .

وفي إحدى الليالي جئت من إحدى سهراتي العابثة، وكانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحًا ، فوجدت زوجتي وابنتي الصغيرة وهما تغطان في سبات عميق فاتجهت إلى الغرفة المجاورة لأكمل ما تبقى من ساعات الليل في مشاهدة بعض الأفلام الساقطة من خلال جهاز الفيديو . . تلك الساعات والتي ينزل فيها ربنا عز وجل فيقول : « هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فأعطيه سؤله ؟ » .

وفجأة فتح باب الغرفة ، فإذا هي ابنتي الصغيرة التي لم تتجاوز الخامسة ، نظرت إلي نظرة تعجب واحتقار ، وبادرتني قائلة : يا بابا عيب عليك ، اتق الله ، رددتها ثلاث مرات ، ثم أغلقت الباب وذهبت ، أصابني ذهول

شديد ، فأغلقت جهاز الفيديو ، وجلست حائرًا وكلماتها لا تزال تتردد في مسامعي وتكاد تقتلني ، فخرجت في إثرها فوجدتها قد عادت إلى فراشها .

أصبحت كالمجنون لا أدري ما الذي أصابني في ذلك الوقت ، وما هي إلا لحظات حتى انطلق صوت المؤذن من المسجد القريب ليمزق سكون الليل الرهيب مناديًا لصلاة الفجر .

توضأت وذهبت إلى المسجد ، ولم تكن لدي رغبة شديدة في الصلاة ، وإنما الذي كان يشغلني ويقلق بالي كلمات ابنتي الصغيرة .

وأقيمت الصلاة ، وكبر الإمام ، وقرأ ما تيسر له من القرآن ، وما إن سجد وسجدت خلفه ووضعت جبهتي على الأرض حتى انفجرت ببكاء شديد لا أعلم له سببًا ، فهذه أول سجدة أسجدها لله عز وجل منذ سبع سنين .

كان ذلك البكاء فاتحة خير لي ، لقد خرج مع البكاء

كل ما في قلبي من كفر ونفاق وفساد ، وأحسست بأن الإيمان بدأ يسير بداخلي .

وبعد الصلاة جلست في المسجد قليلاً ثم رجعت إلى بيتي فلم أذق طعم النوم حتى ذهبت إلى العمل ، فلما دخلت على صاحبي استغرب حضوري مبكراً ، فقد كنت لا أحضر إلا في ساعة متأخرة بسبب السهر طوال ساعات الليل، ولما سألني عن السبب أخبرته بما حدث لي البارحة. فقال : احمد الله أن سخر لك هذه البنت الصغيرة التي أيقظتك من غفلتك ولم تأتيك منيتك وأنت على تلك الحالة .

ولما حان وقت صلاة الظهر كنت مرهقًا حيث أنني لم أنم منذ وقت طويل فطلبت من صاحبي أن يتسلم عملي، وعدت إلى بيتي لأنال قسطًا من الراحة وأنا في شوق لرؤية ابنتي الصغيرة التي كانت سببًا في هدايتي ورجوعي إلى الله .

ولو علمت أخي القارىء أن طول السيجارة ولنأخذ سجائر (سوبر كليوباترا) كمثال على ذلك تساوي ١٠ سم، لو قمنا بعملية حسابية بسيطة وضربنا ١٠ × ٢٠ سيجارة يوميًا يكون المجموع ٢٠٠ سم ، بمعنى أن المدخن المعتدل في التدخين الذي يدخن علبة واحدة في اليوم يدخن سيجارة طولها ٢ متر بالتمام والكمال !! ولو ضربنا ٢ متر × ٣٠ يوم أي في الشهر الواحد يكون الحاصل ٦٠ متر ، ولو علمنا أن الدور الواحد في أي عمارة تقريبًا ٣ متر وقسمناها على ٦٠ متر طول السيجارة في الشهر الواحد يكون الحاصل ٢٠ دور ، أي ناطحة سحاب !!!.

فما رأيك أيها المدخن ؟!! وبعد ذلك تسمع من يقول على السيجارة تعدل الدماغ وتزيد التركيز !!

ثم كيف يكون طول السيجارة لمن كان يدخن علبتين أو ثلاثة ومن عشرين سنة أو أقل أو أكثر كيف يكون

ولعل ما يشرح صدر العاصي الذي عزم على عدم العودة إلى المعصية حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال : « إن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا فقالت : يا رسول الله أصبت حداً فأقمه علي .

فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال : « **أحسن إليها فإذا وضعت فأتني بها** » .

ففعل بها ، فأمر نبي الله فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها .

فقال عمر : تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت ؟!

قال : « **لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل** »[1] .

---

(١) رواه مسلم (٣ / حدود / ١٣٢٤ / ح ٢٤) ، والترمذي (٤ / ١٤٣٥) .

الشرط الثالث :

الندم على ما فات

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى : (الندم هو توجع القلب عند شعوره بفراق المحبوب، وعلامته طول الحزن والبكاء ، فإن من استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعز عليه طال بكاؤه ، واشتدت مصيبته، وأي عزيز أعز عليه من نفسه؟ وأي عقوبة أشد من النار ؟ وأي سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأي مخبر أصدق من رسول الله ولو أخبره الطبيب أن والده لا يبرأ من مرضه لاشتد في الحال حزنه وليس ولده بأعز عليه من نفسه ولا الطبيب أعلم من رسول الله ﷺ ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض أدل على الموت من المعاصي على سخط الله ، والتعرض بها للنار) . اهـ .

(١) إحياء علوم الدين - الجزء الخامس - لأبي حامد الغزالي .

حكي أن رجلاً عبد الله سبعين سنة فبينما هو في معبده ذات ليلة إذ وقفت به امرأة جميلة فسألته أن يفتح لها، وكانت ليلة شاتية فلم يلتفت إليها وأقبل على عبادته، فولت المرأة فنظر إليها فأعجبته فملكت قلبه وسلبت لبه فترك العبادة وتبعها وقال : إلى أين ؟ فقالت : إلى حيث أريد . فقال : هيهات صار المراد مريداً ، والأحرار عبيداً ! ثم جذبها فأدخلها مكانه فأقامت عنده سبعة أيام فعند ذلك تذكر ما كان عليه من العبادة وكيف باع عبادة سبعين سنة بمعصية سبعة أيام فبكى حتى غشي عليه فلما أفاق قالت له: يا هذا والله أنت ما عصيت الله مع غيري وأنا ما عصيت الله مع غيرك ، وإني أرى في وجهك أثر الصلاح فبالله عليك إذا صالحك مولاك فاذكرني . قال : فخرج هائمًا على وجهه فآواه الليل إلى خربة فيها عشرة عميان وكان بالقرب منهم راهب يبعث إليهم في كل ليلة بعشرة أرغفة فجاء غلام الراهب على عادته بالخبز فمد ذلك

الرجل العاصي يده فأخذ رغيفًا فبقي منهم رجلاً لم يأخذ شيئًا فقال : أين رغيفي ؟ فقال الغلام : قد فرقت عليكم العشرة . فقال : أبت طاويًا . فبكى الرجل العاصي وناول الرغيف لصاحبه وقال لنفسه أنا أحق أن أبيت طاويًا لأنني عاصي وأنت مطيع ، فنام واشتد به الجوع حتى أشرف على الهلاك فأمر الله تعالى ملك الموت بقبض روحه فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة: هذا رجل فر من ذنبه وجاء طائعًا. وقالت ملائكة العذاب: بل هو رجل عاصي. فأوحى الله تعالى إليهم أن زنوا عبادة السبعين سنة بمعصية السبع ليالي. فوزنوها فرجحت المعصية على عبادة السبعين سنة ، فأوحى الله إليهم أن زنوا معصية السبع ليالي بالرغيف الذي آثر به على نفسه. فوزنوها فرجح الرغيف فتوفته ملائكة الرحمة . وقبل الله توبته)[١]. اهـ .

ومن ثم إذا تاب العبد وأقلع عن الذنب وعزم على

(١) المستطرف للأبشيهي .

عدم العودة بإخلاص فعليه أن يندم عما اقترفته جوارحه من ذنوب ومعاصي ويحمد الله الذي أنار بصيرته لرؤية الحق بعد ظلمات الجهل التي كاد الشيطان أن يضله فيها ، وعلى العبد التائب أن يكون ندمه عمليًا فلا يكفي أبدًا أن يقول : يا رب قد ندمت عما اقترفته يداي فتب علي إنك أنت التواب الرحيم ، كلا ، وإنما صدق الندم في التوبة بإصلاح الخطأ وزيادة الحسنات التي تمحو السيئات بالأعمال الصالحة وإحلال محل كل معصية ارتكبتها بجارحة من جوارحك طاعة تمحو ما سبق وهذه هي حقيقة الندم وصدق نية صاحبها . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ١١٤] .

فمثلا لسانك الذي كان يأخذ في أعراض الناس بالغيبة أو النميمة أو كان يشهد الزور أو يكذب أو يسب المسلمين أو غير ذلك . فأصل الندم أن نجعل اللسان كما ذاق المعصية نذيقه حلاوة الطاعة عن طريق الذكر

والاستغفار والكلمة الطيبة ، وقراءة القرآن ، واليد ربما تكون سرقت أو ارتشيت بها أو ضربت بها مسلمًا عليك بالبديل فامسح بها على رؤوس اليتامى ، وتصدق وامنع بها ظلمًا وقع على إنسان ، وهكذا في جميع الجوارح .

وتذكر قول الصادق المعصوم ﷺ من حديث ابن مسعود : « إن رجلاً أصاب من امرأة قبلة ، فأتى النبي ﷺ فأخبره الله - أقم الصلاة طرفي النهار وزلفًا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات - فقال الرجل : يا رسول الله أليَ هذا ؟ قال : لجميع أمتي كلهم »[1] . اهـ .

الشرط الرابع :

إرجاع الحقوق إلى أصحابها

وهذا هو أصعب الشروط لأنه يتعلق بمظالم العباد سواء كانت في المال أو النفس أو العرض ، والظلم ظلمات

(١) أخرجه البخاري ٩ كتاب مواقيت الصلاة - ٤ باب الصلاة كفارة .

يوم القيامة وسيأتي فصل خاص به إن شاء الله تعالى ، فعلى العبد التائب أن يستحل من أخيه مظلمته لتكون توبته إلى الله مقبولة ، فإن كان قتل نفسًا خطأ أوصل الدية إلى مستحقها هو أو من ينوب عنه ، وإن قتل عمدًا وجب عليه تسليم نفسه إلى العدالة للقصاص منه .

وإن كانت المظالم مالية كالسرقة فليس عليه أن يفضح نفسه بعد ما ستره الله تعالى ، وإنما عليه بإعادة المسروقات إلى أصحابها على عناوينهم وأماكنهم دون أن يفضح نفسه وكفى أن الله تعالى شهيدًا عليه ويعلم صدق توبته ولو كان أصحاب الحق قد ماتوا أو لا يعرفهم ،ما على الإنسان التائب إلا أن يتصدق بثمن ما سرق من مال عليهم وعلى هذه النية وتلك الصدقة يكون العبد قد أرجع الحقوق إلى أصحابها . أما لو كانت المظالم في الأعراض كغيبة أو نميمة فعليك بأن تذهب لأخيك معتذرًا راجيًا عفوه ورضاه عنك وعلى الإنسان إذا جاءه أخيه معتذرًا أن يقبل عذره ولا يسأله

عن السبب ولا يتكبر عليه ، وإنما يسامح ويعفو ويتقي الله فيه . يقول الحسن البصري : لو شتمني أخي في أذني اليمنى ثم جاءني معتذرًا في أذني اليسرى ما استحققت رحمة الله إن لم أقبل عذره .

وجاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « **من كان له مظلمة لأحد من عرضه أو ماله فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه** »[1] . وعن أبي هريرة أيضًا قال النبي ﷺ : « **لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء** »[2] . والجلحاء التي لا قرن لها .

ولهذا كله أسرع بإرجاع الحقوق إلى أصحابها وبرء نفسك أمام الله قبل أن يأتيك ملك الموت وأنت على معصيته تعالى . وتذكر قول الإمام الشافعي رحمه الله :

من واجب الناس أن يتوبوا ولكن ترك الذنوب أوجب

(١) أخرجه البخاري (٥/٢٤٤٩/ فتح) وأحمد في مسنده (٢ / ٥٠٦) .

(٢) أخرجه مسلم (٤/بر/١٩٩٧/ ٦٠) والترمذي (٤/ح/ ٢٤٢٠) .

بيان أقسام العباد في دوام التوبة

يقول أبو حامد الغزالي الناس في التوبة أربع طبقات:

الطبقة الأولى

تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره ويتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعودة إلى ذنوبه إلا من الزلات التي لا ينفك عنها البشر وصاحبها هو السابق بالخيرات فهذه هي التوبة النصوح ، وتسمى هذه النفس المطمئنة .

الطبقة الثانية

تائب قد سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات ولكن تعتريه ذنوب دون قصد وعمد منه يبتلى بها في دنياه فلام نفسه وندم وعزم على الاحتراز منها فهذه هي النفس اللوامة ، وهي رتبة عالية أيضًا وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى .

الطبقة الثالثة

أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه شهوته وشيطانه فيقع في الذنوب إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها وصاحبها من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ فأمر هذا حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مرجوة لقوله تعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] . وهذه هي النفس المسئولة .

الطبقة الرابعة

أن يتوب ويجري على الاستقامة، ثم يعود إلى الذنوب دون أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير تأسف على فعله وهذه هي النفس الأمارة بالسوء ويخاف على هذا سوء الخاتمة[1] . اهـ .

---

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالى / ٥ ونقل بتصرف .

انظر أخي القارىء من أي طبقة تكون واجتهد في الطاعات وابتعد عن المعاصي ولا تبع دينك بدنياك ، فإنما الدنيا دار بلاء ودار عمل ، من زرع فيها حصد ونجا ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

وأخيرًا تذكر أخي القارىء قول الشاعر

أيا شابًا لرب العرش عاصي أتدري ما جزاء ذوي المعاصي

سعيرًا للعصاة لها زفير وغيظ يوم يؤخذ بالنواصي

فإن تصبر على النيران فاعصه وإلا فكن عن العصيان قاصي

وفيم قد كسبت من الخطايا وهنت النفس فاجهد في الخلاص

وأسأل الله تعالى أن تكون هذه الرسالة خالصة لوجهه الكريم ، ولا يجعل للشيطان فيها حظًا ولا نصيبًا، وأن تكون بلسمًا شافيًا للعاصين في عودتهم لله تعالى ، وسكينة ورحمة لمن سلك طريق التوبة وهجر المعاصي . والله المستعان والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكتبه الفقير إلى عفو ربه

سيد مبارك (أبو بلال)

الفهرس

مقدمة الكتاب ٣
مقدمة الجزء الأول ٥
الأمانة والإنسان ١١
قصة ليلى الحلو مع السرطان ١٥
تسويف التوبة ٢٤
حقيقة التوبة ومعناها ٢٧
الترغيب في التوبة ٣٠
شروط التوبة ٣٧
الشرط الأول : الإقلاع عن الذنب ٣٨
التدخين حرام . . حرام ٤١
الشرط الثاني : العزم على عدم العودة ٤٥
الشرط الثالث : الندم على ما فات ٥٤
الشرط الرابع : إرجاع الحقوق إلى أصحابها ٥٨
بيان أقسام الناس في دوام التوبة ٦١